آيريس

«هناك شيء خاطىء ألا ترى ذلك! حكمني ولا تتبع قلبك»

عقلي يكرر ذلك وأنا أرفض تصديقه فلا يحصل الأمر غالبًا، بل أكاد أجزم أنه لا يحصل مطلقًا إن تنظر لي أنثى، فما بالك بأجملهن وأكثرهن إثارة. لا لن أصدق عقلي وحواسي وحدسي فأنا في نعيم لم أتذوقه قبلا. فآيريس تُظهر اهتمامًا بي وقلبي ذاب بها من النظرة الأولى كما يقولون، أريدها كما لم أرد شيئًا من قبل، سأكون عند حسن ظنها وسأثبت خطأ عقلي.

كم أندم على كل ذلك اليوم، ليتني استمعت للعقل والحدس إلا أن هذا الندم لن ينفع مطلقًا، فما حصل قد حصل ولست أدري كيف لي الخلاص.

لأخبركم بقصتي من البداية، أنا ساهر، رجل ثلاثيني هزيل شاحب وأقل من عادي في كل أموري، لم أتميز في شيء طوال حياتي لا أكاديميًا ولا عمليًا، وحتى إن مظهري عادي جدًا، بل في هذا المضمار إنني أقل من عادي حتى، لم يعد يزعجني ذلك إطلاقا تأقلمت مع هذا الواقع منذ زمنٍ بعيدٍ، وتقبلت كوني لا أصلح للعلاقات العاطفية بكل مؤهلاتي تلك، فأنا لم أنهي حتى تعليمي الثانوي وأعمل كنادل في ذات المطعم منذ ثمانية أعوام

على التوالي، لا أحداث تغير روتيني مطلقًا زبائن المطعم أشعر وكأنهم لا يرونني، أُنهي عملي لأعود إلى منزلي المؤلَّف من غرفة معيشة وغرفة نوم أعيش فيه وحدي منذ أن ودّعت أمي هذه الدنيا وتركتني، الوحيدة التي رأتني متميزًا؛ لذلك حين ظهرت آيريس في حياتي كانت صدمة لا تصدق نظراتها لي، اهتمامها بي وابتسامتها الساحرة جذبتني كفراشة نحو اللهب.

آيريس فتاة تملك سحرًا وجاذبية غير اعتيادية إطلاقا بشعرها الأسود الطويل و جسدها الممشوق وعيون خضراء كأنها تضيء. أن تظهر اهتمامًا بي ولو ضئيلا كان كافيًا لأن أذوب أنا فيها وأعطيها كل ما لديَّ. تعرفت عليها بداية في المطعم، ثم تطورت علاقتنا حين اعترفت لي بحبها، كم رفعتني بحبها ذاك أصبحت أرى العالم بعيون وردية وأرى نفسي بعيونها كاملا خال من العيوب.

عشت لها وأمضيت ثلاثة أشهر من أجمل أيام حياتي معها، كانت تعرف كيف تشعرني بالأهمية، أصبحت خاتمًا بيدها. حين زرتها في منزلها للمرة الأولى استقبلني هرها الأليف عزازير هر أسود ضخم بعيون واسعة خضراء، أثار حفيظتي بنظاراته التي أقسم أنا نظرات شريرة وكأنه قط جحيمي، أطال النظر إليَّ وكأنه يسبر روحي، ارتعدتُ وأنا أبتعد عنه، بطبيعتي لا أحب القطط ولا الحيوانات جميعها فكان عزازير عقدتي معها، سألتها:» لم أسميته عزازير؟»، ضحكت قائلة :

«للونه الأسود ونظراته الثاقبة». لم يكن القط الغريب الوحيد في المنزل، ففي كل ركن هناك تمثال صغير لا يتجاوز حجمه كف اليد لشاب أو لفتاة في أوضاع مختلفة هناك العشرات منها مختلفة الألوان ومزروعة في كل مكان وكأنها تراقبك، منزلها بأكمله له هالة مرعبة مظلم حتى مع وجود الأضواء وكأنك في وكر للشعوذة لا يشبهها هي التي تشع سحرًا وجاذبية.

جلست في الصالة بقلق من شعوري بأن مئات الأعين تراقبني إضافة إلى ذلك الهجين عزازير، جلست على الرغم من أن حواسي أنبأتني بضرورة الذهاب، لكنها دعتني لكوب من القهوة ولم يكن قلبي ليدعني أرفض تلك الدعوة.

لاحظت آيريس عدم راحتي بوجود عزازير فقامت بحبسه في غرفة نومها واتجهت إلى المطبخ، مرت دقائق عديدة وغافلني النوم، رأيت في منامي عزازير يقف مواجهًا للنافذة على قائمتيه الخلفيتين ورأيتني أدنو منه متعجبًا من وقفته تلك، وما إن أصبحت خلفه مباشرة حتى استدار وحدق بعيوني استمريت في التحديق بتلك العيون الخضراء وكأني نُومت مغناطيسيًا، لينطق بعدها «غاضب» بصوت أقرب للفحيح ثم خدشني من كتفي الأيسر حتى خاصرتي اليمنى، استيقظت فزعًا أتصبب عرقًا أجاهد لالتقاط أنفاسي وكأني كنت أركض ماراثونا، شعرت بلهيب حارق على صدري ممتد من كتفي حتى خاصرتي، رفعت قميصي لأجد جرحًا عميقًا حارقا، لكنه لا ينز دما، تماما كما في الحلم جرحا ببراثن عزازير!

انتفضت واقفا أذكر اسم الله، دخلت الحمام غسلت وجهي في محاولة للتركيز، ذهبت إلى آيريس كانت في المطبخ تدندن لحنًا بينما تحضر القهوة، إذاً أنا لم أنم طويلا سألتها» أين عزازير؟» التفتت إليَّ مستغربة : «لقد حبسته في غرفتي ألم ترني أقم بذلك؟!» لم أعرف بماذا أجيب، ازدادت نبضات قلبي ودب فيَّ الذعر، لا أذكر يومها كيف تملصت منها وعدت إلى منزلي، بقي الجرح مؤلمًا لأسابيع وحين شفي بقي أثره لم يزول.

ومنذ ذلك الحين رفضت قطعًا أن أزورها في منزلها وأصبحت لقاءتنا خارجًا فقط بعيدًا عن هرها الأسود، كنا نستمتع بوقتنا سويًا نقضيه ما بين أحضان الطبيعة قدر الإمكان بعيدًا عن الضوضاء والبشر، كنت

أرى في عيونها كلامًا كثيرًا وغموضًا، وحين أسألها ما بها كانت تتهرب من السؤال لتقلب الموقف إلى ضحك تسحرني ضحكتها فأتناسى الغموض وكل هواجسي تتجلي.

توالت أحلامي المزعجة التي كان بطلها عزازير دون منازع، عاودني كابوسًا آخر، هذه المرة رأيته ممددًا على حافة النافذة على ارتفاع عالي يبدو طويلا حقًا، مغمض العينين وجدتها فرصة مناسبة لأدفعه وأتخلص منه، ما إن لمعت الفكرة في رأسي حتى قفز عزازير وكأنه قرأها في عقلي، وقف على أطرافه الأربعة هذه المرة وأخذ يقترب مني ببطء شديد وأنا أبتعد عنه رويدًا رويدًا، كان قلبي ينبض بعنف والخوف تملكني، ابتسم عزازير ابتسامة جانبية وضرب قائمته الأمامية أرضًا معها حلقت أنا كدمية وارتطمت بقوة بالحائط خلفي لتعلو ضحكة عزازير.

انتفضت جالسا لأجد نفسي في منزلي وفي سريري تنفست ملئ رئتاي وشعرت بألم حاد في رأسي وظهري، لم أكن أعلم كيف لحلم أن يؤثر على جسدي في الواقع أم أن القط فعلا يأتيني وهو من الجن كما توحي نظراته!. نظرت للساعة ممسكًا برأسي لأجدها الخامسة فجرًا، نهضت لأجلب كوب ماء وحبتي مسكن علَّ الصداع يزول، تجرعتهم وجلست أمسح رأسي مغمض العينين ليهدأ الصداع فجأة مع طرق الباب، استغربت كثيرا من قد يكون في هذه الساعة الباكرة؟؟ طرق الباب من جديد بقوة أكبر فتحته لأجد آيريس تحمل عزازير وحقيبة يد صغيرة، دخلت قبل أن أدعوها أنا للدخول، وضعت القط والحقيبة، ثم احتضنتني قائلة : « أعتذر عن مجيئي المفاجئ ساهر، ولكن ليس عندي غيرك، أنت ملجأي وقت الشدائد» كان لكلامها، حضنها وشذاها تأثيرًا عليَّ مماثل للمخدرعلى المدمن

- «طبعًا عزيزتي ما الأمر؟»

-»أنا مضطرة للسفر كما أخبرتك سابقًا وصديقتي مريضة لا تستطيع الاعتناء بعزازير، وكما تعلم لا أستطيع أخذه معي ولا تركه وحده» ابتسمت وأمالت رأسها جانبيًا وأردفت:» هلاَ أبقيته عندك ليومين فقط؟»، حين رأت توجسي وقلقي أضافت بعد أن طبعت قبلة على خدي:» سأكون ممتنة لك أشدَ امتنان لا وقت لديَّ لأجد بديلاً، ستحبه صدقني» ثم مالت وربتت على رأس الهر الذي مسح نفسه بقدمها بكل دلال وهي تقول له» أحسن التصرف عزازيري، وكن خير ونيس لساهر»، لم أستطع الرفض ولم أكن لأدعها ترى الرعب الذي يتملكني من عزازيرها هذا، وافقت على مضض ضمتني مجددًا، حملت حقيبتها وخرجت تاركة خلفها الهجين عزازير.

لا يُعقل أن يكون هرًا طبيعيًا ليس بحجمه هذا وعيونه تلك! عيون كانت تنظر لي وكأنها ترى الفزع في عيناي إلا أنه استدار مبتعدًا عني وتمدد على الأريكة المواجهة للنافذة.

سار يومي الأول مع عزازير بسلاسة لم أكن أتوقعها، لا نظرات مخيفة ولا ابتسامات مريبة، كان قطًا عاديًا، تجاهلني وتجاهلته طوال الوقت، يخرج قليلا ليعود يأكل وينام.

أخذت أشعر بالسخف من مخاوفي السابقة ومن كل كوابيسي فها هوعادي جدًا باستثناء حجمه، لعله يملك أمًا طويلة! نفضت كل هذه الأفكار من عقلي ودخلت لآخذ حمامًا طويلا يُذهب تعب النهار، ما إن خلعت قميصي ورأيت الندبة الطولية حتى عادت هواجسي من جديد عقلي يحدثني:» إذا كيف حصلت عليَّ هذه الندبة يا ذكي، لا تأمن للقط أخرجه من المنزل فورًا» ليرد قلبي» لا، لا تفعل ستحزن آيريس وعلى الأغلب ستغضب منك وتتركك وهل كنا نحلم حتى بفتاة مثلها أو حتى

لنصف ما هي عليه لا تخرجنا من هذا النعيم»

- «اصمت! أنا أعرف أن هذا كله غطاء لأمر ما، هناك دوافع أخرى تدفع آيريس لمصاحبتنا، أرى ذلك في عينيها»

- «كف عن هرائك، دعنا نستمتع لا يجب أن تتدخل و تدمر شيئًا جميلاً ؟!»

صداع هائل اجتاحني، أردت للصراع ذاك أن يتوقف، ملئت حوض الاستحمام ماءً باردًا وغطست فيه طامرا نفسي تحت سقيع الماء في محاولة لإسكات أفكاري.

أغمضت عيناي حابسًا أنفاسي، بدأت الأصوات تخمد والجدال يذوي، فتحت عيناي لتقابلني عينان خضراوان واسعتان خرجت مني صرخة مكتومة وتمرغت في محاولة مني للصعود واستنشاق الهواء، ابتلعت نصف الماء وغرقت في موجة سُعال، لا أعلم مع كل ذلك كيف استطعت الوقوف، جلت بنظري في أرجاء المكان لا أثر لعزازير، استندت إلى الحائط في محاولة لتهدأة أعصابي، انهيت حمامي بسرعة وخرجت متجهًا إلى غرفة نومي، لم أتكبد عناء البحث عنه دخلت غرفتي تأكدت من أن عزازير ليس فيها أغلقت الباب وتمددت على سريري، لم أشعر بنفسي إلا وأنا في غياهب الغفا، استسلمت لنوم عميق أرى فيه قططًا سوداء وعيونًا جهنمية خضراء.

كنت أشعر بنفسي وأنا أتقلب يمينًا و يسارًا لا أستطيع الاستيقاظ لفترة طويلة، بعدها هدأت وسكنت في نومي لم أدر كم من الوقت مر إلا أنني شعرت بثقل كبير يضغط على صدري، التنفس أصبح صعبًا فتحت عيناي ببطء، فتحتها مرات متتالية لتتضح الرؤية، إنه عزازير! يقف على صدري وجهه على بعد سنتيمترات قليلة عن وجهي، عيناه أمام عيناي وأشعر

بأنفاسه الحارة المقززة تلفح وجهي، انتصبت في محاولة مني للجلوس إلا أن وزنه منعني استندت على مرفقاي فزعًا، لم يتحرك! وكأنه قطب حاجبيه! طالت نظراته لا أدري إلى كم من الوقت بعدها قفز عن صدري و خرج من باب الغرفة المفتوح ملوحا بذيله خلفه.

اعتدلت جالسًا بعدما أخذت نفسًا عميقا مستحق فركت عيناي هل حصل ذلك فعلاً أم أني كنت أحلم ؟؟ حاولت النهوض إلا أن جسدي لم يسعفني لذلك، بقيت في وضع الجلوس أحاول تهدأة نبضي وأستجمع شجاعتي للنهوض، حين سمعت صوت رجل يتكلم بلغة لم أفهمها بصوت أجوف عميق، عندها هببت واقفًا وأسرعت للصالة، لا يوجد أحدًا سوى عزازير يجلس خلف الكنبة لا يظهر منه سوى عيناه الخضراوان اللتان تضيئان في ظلام الغرفة، استدرت لأشعل الضوء وحين أعدت نظري ناحية عزازير لم أجده، لم يترك لي مجالاً للتفكير كثيرًا بالأمر، هبط على رأسي شيء ثقيل وغبت عن الوعي.

صداع مهول يقسم رأسي إلى نصفين، وألم حاد في معصمَي، حاولت تحريك يداي لأجدهم مربوطتين، أنا أجلس على كرسي ويداي مربوطتين خلفي وكذلك كاحلي مربوطان إلى الكرسي حاولت شد وثاقي والتفلت لم أقدر، كما أني لا أرى شيئًا، الظلام حالك وأشعر بدم حار ينساب على رقبتي من الخلف، رائحة عطنة ورطوبة عالية حركت فيَّ الرغبة بالتقيؤ، صرخت بأعلى صوتي لا مجيب، فجأة تضاء الغرفة لجزء من الثانية بومضة من مصباح النيون الكهربائي المثبت بالسقف مع أزيز مستمر من المصباح، لا بد أنه لا يعمل، مع الومضات المتتالية استطعت أن أتبين أني في غرفة مخزن يحيط بي العديد من الرفوف والصناديق.

لم أعلم ما الذي أتى بي إلى هنا أو من الذي أوثقني إلى هذا الكرسي،

المكان بارد جدًا أرتجف بشدة والصداع تتزايد وتيرته، عدا عن صوت أزيز النيون وأنفاسي المجهدة لا صوت في المكان هدوء يثير القشعريرة في جسدي، استسلم الضوء وتوقف عن محاولة الإضاءة غرقت في الظلام الحالك من جديد لم أدري كم مرة غرقت في نوم أو غياهب ولم أعلم كم من الوقت مر وأنا هنا، هل نحن في النهار أم الليل ؟ أشعر بالتعب والوهن و عطش شديد.

كنت أسقط في نوم قلق حين سمعت ذاك الصوت يأتي من بعيد، ذات الصوت الذي سمعته في منزلي رجل بصوت أجوف، وكأنه يخرج من أعماق أعماقه يتكلم مع أحدهم، وضعت كل تركيزي في محاولة للاستماع

- «إننا على وشك الانتهاء سيدي ومولاي، كما أن المدة لم تنتهي بعد»

لم أسمع الرد، « نعم أعدك، سيكون كل شيء جاهز حتى ذلك الحين إننا نقوم بأقصى جهدنا وسننجز الأمر لا تقلق»

من هذا! عن ماذا يتحدث رحت أصرخ «اخرجني من هنا، هيا أنا أسمع صوتك في الخارج اتركني ماذا فعلت لأستحق هذا؟!»

لا جواب! سكون من جديد. مر بعض الوقت حين سمعت صوت آيريس، دبّ الأمل فيّ وأحيت بصوتها كل ذرة من كياني، أخذت أناديها، ملهوف، هي طوق نجاتي أتت لإنقاذي ناديت وناديت دون إجابة لم تكن تسمعني، تنصّت لأسمع فوجدت صاحب الصوت يقول:» ركزي آيريس لا تهدمي كل شيء سيكون العقاب وخيمًا، أنت تعلمين جيدًا أننا اقتربنا من الهدف لا تدعي جنونك يسيطر من جديد فلا وقت لدينا لتحمل عقبات جنونك، هذا مرة أخرى.»

آيريس:» ولكن عزازير لنجلب شخصًا غيره، أستطيع تأمين شخصًا آخر»

صدمة.. اتسعت حدقتاي على آخرهما مما سمعت، اتسعتا على الرغم من الظلام الدامس، «هل الصوت يعود لعزازير؟!!!! إذا يتكلم! ما هذا يا ربي ما الذي يحدث؟»

علا صوت عزازير « آيريس الوقت ليس في صالحنا لم يتبق الكثير، يجب أن ننهي الأمر هذه الليلة أم أنك سعيدة بي وأنا على هيئة هذا القط؟ أريد استعادة جسدي الآدمي من جديد مللت هذا الحال، كما أننا اقتربنا من النهاية لم يتبق لنا سوى قربان واحد غيره، ثم أني لا أفهمك لم تريدين تبديله! انظري إليَّ أنت آيريس صائدة الجان أريني آيريس تلك، آيريس التي تحددت هيروبوزا ملك قبيلة الجن الأحمر، وكادت أن تكسب لولا تدخل الطفيلية جيرا لنجحنا وأصبحنا على رأس الحكم، وكنتِ أصبحت أنتِ أول آدمية تصبح ملكة على قبيلة جان كاملة، وتذكري أنك أنتِ السبب في كل هذا»

« أفف عزازير ألن تكف يومًا عن لومي، لم أكن أنا من طلب منك المجيء معي، لو أنك لم تحشر أنفك في أموري لاقتصر أمر العقاب عليَّ أنا وحدي، لكنك استحققت التحول إلى قط، لم كان عليك أن تستهزأ بجيرا! تحمّل إذًا غضبها»

«آيريس!!» صرخ بها بصوت عال...

«حسنًا اصمت وهيا بنا ننهي الأمر فقد أوشك القمر على انتصاف السماء»

سمعت صدى صوت حذاء آيريس ذو الكعب العالي يقترب ناحيتي،

صوت ولوج مفتاح في الباب ليفتح على مصرعيه مدخلا معه ضوءًا أصفر أضفى ظلالا على آيريس جعل ظلها ممتدًا نحوي وأخفى ملامحها عن عيوني التي كانت تحاول جهدها رؤية عينيها.

ودخل خلفها عزازير واقترب مني، وقف على قدميه الخلفيتين متكأً بقدميه الأماميتين على ركبتاي، أضاءت آيريس الإنارة في الغرفة لأجد وجه عزازير مقابلا لوجهي مقطب الحاجبين، صرخ بي «كم أمقتك يا هذا، ماذا فعلت لتخرجها عن طورها؟» وخدشني بكفه زارعًا خمسة مخالب في خدي تاركًا ألمًا حارقاً مكان مخالبه التي جرها من أذني وحتى فمي، كنت في صدمة تامة لم أستطع أن أنطق على الرغم من الآف الأسئلة التي تحوم في عقلي، كل ما فيَّ يؤلمني إلا أن غدر آيريس وخداعها لي أدمو قلبي، وكان لذلك القلب النصيب الأكبر من الألم.

هبط عزازير مبتعدًا عني لتقترب آيريس مني، وقفت مقابلي عيناها في عيناي وكأنها إنسانة أخرى مختلفة تمامًا عن آيريس التي أحببت كل العطف والبرآة فيها في هالتها انتزعوا وزرع مكانهما القسوة، لمعة عينيها اختفت لتصبح عيونًا عميقة لا روح فيها، عيون مخيفة. «آيريس»، خرج صوتي غريبًا عني لم أعرفه وضعت أصبعها على فمي لإسكاتي ثم ابتعدت، يثير طرق حذاؤها التوتر في أعصابي التالفة أصلا، أخذ عقلي يفكر» ما الذي يحضرونه لي؟ أين اختفوا؟».

تسارعت أنفاسي وبدأ العرق يهطل عني زخات زخات، لم أكن أستطيع النظر خلفي فرأسي يؤلمني بشدة وأسمع تحركاتهم في الخلف لتتقدم آيريس أمامي معها خنجر ذهبي طويل، وقفت على بعد أمتار مني وعزازير يقف متفرجًا، بالخنجر جرحت معصمها الأيمن جرحًا صغيرًا، ثم وضعت نقطة دم منه في تمثال زجاجي صغير لرجل مماثل للتماثيل في منزلها، «

لا آيريس لا تفعلي» هبط الفهم عليَّ دفعة واحدة، رحت أقاوم قيدي دون جدوى توجهت بعدها إلى عزازير متجاهلة ندائي وقامت بجرح أذنه اليمنى جرحًا بسيطًا ووضعت قطرة دم منه في التمثال الذي لا يملك رأسا، ثم وضعت التمثال في وسط دائرة مرسومة على الأرضية لم ألحظها قبلا حولها حروف ليست عربية وفي وسطها نجمة، وضعت التمثال في الوسط فوق النجمة تمامًا أشعلت عود ثقاب كان بيدها، ثم أخذت تردد هي و عزازير بصوت واحد :

«بحق إسرافيل وإسحاق وإسماعيل وسليمان بعهد آيريس مع هيروبوزا تقبل القربان منا هيروبوزا تقبله منا تقبله منا»

بعدها ألقت عود الثقاب في التمثال فخرجت منه شعلة زرقاء مموجة بالأصفر لتعلو عاليًا و تنفجر في الهواء بلون أسود وتختفي، كل هذا وأنا في ذهول أخرسني، لم أنبس ببنت شفة، لتلتقط آيريس التمثال بسرعة بعد انطفاء الشعلة، يقف عزازير على قائمتيه الخلفيتين أمامي تعطيه آيريس التمثال وتقف هي خلفه مواجهة لي تحولت عيونها للسواد التام وأقسم أني رأيت زوابع من نار في مقلتيها.

رفعت الخنجر عاليًا وأنزلته مخترقا شمال صدري، لهيب حارق وألم ماحق انتشر في جسدي، جحظت عيناي وأنا أرى روحي تتسلّ مني لتدخل التمثال في يد عزازير وأصبح جثة هامدة أمامهم، وضعت آيريس رأس التمثال مغلقة على روحي بداخله. الغريب اني كنت ولا زلت أنا بداخل التمثال أشعر وأرى من داخله.

حملتني آيريس تبعها عزازير إلى منزلها، دخل عزازير غرفة موارية لم ألحظها في زيارتي السابقة، انتظرته آيريس حتى توارى عن الأنظار، ثم جلست على الكنبة ووضعتني بين كفيها مقابل وجهها، ابتسمت لي وعادت

عيونها للونها الأخضر:» أنت حقًا أحمقًا و كنت صيدًا سهلاً، فكما ترى عزازير أخي و توأمي تحول إلى قط وأنا يجب أن أسدد الثمن لهيروبوزا، مئة قربان يقدمون سويًا عند اكتمال قمر العام الثاني من الصفقة وأنت الرقم تسع وتسعون اقترب الوقت على الانتهاء ولا زلت بحاجة لقربان جديد، لأتوج أنا أول أنسية حاكمة لقبيلة بني الأحمر وزوجة لهيروبوزا»، اتسعت ابتسامتها وأردفت بعدما لمحت الحيرة في عيون التمثال:» وهل ظننت أنني أحببتك حقا؟! مسكين يا ساهر تستحق هذا المصير» وضعتني على الرف المقابل للباب وابتعدت ضاحكة لأبقى وحدي بين عشرات التماثيل بعيون زائغة لا تعرف كيف المهرب وإلى أين المفر.

تمت

تمام الشورى